وفى لقطة أخرى حدد المكان ، فقال : ﴿مَكَانًا سُوًى (٥٨)﴾ [طه] يعنى : فيه سوائية ، إما باستواء المكان حتى يتمكّن الجميع من رؤية هذه المباراة السحرية ، بحيث تكون فى ساحة مستوية الأرض ، أو يكون مكاناً سواسية متوسطاً بين المدائن التى سيجمع منها السحرة ، بحيث لا يكون متطرفاً ، يشقّ على بعضهم حضوره .

وهكذا تتكاتف اللقطات المختلفة لترسم الصورة الكاملة للقصة .

ونرى فى هذه المشورة حرْصَ الملأ على إتمام هذا اللقاء ، وأن يكون على رؤوس الأشهاد ، لأنهم يعلمون أنها ستكون لصالح موسى ، وسوف يفضح هذا اللقاءُ كذبَ فرعون فى ادعائه الألوهية .

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠)﴾

أى : أخذوا يدعُون الناس ، وكأنهم فى حملة دعاية وتأييد ، إما لموسى من أنصاره الكارهين لفرعون فى الخفاء ، وإما لفرعون ، فكان هؤلاء وهؤلاء حريصين على حضور هذه المباراة .

إننا نشاهد الجمع الغفير من الجماهير يتجمع لمشاهدة مباراة فى كرة القدم مثلاً ، فما بالك بمباراة بين سحرة مَنْ يدَّعى الألوهية وموسى الذى جاء برسالة جديدة يقول : إن له إلهاً غير هذا الإله ؟ إنه حَدَثٌ هزَّ الدنيا كلها ، وجذب الجميع لمشاهدته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١)﴾

فانظر إلى مسيرة الإله فرعون فى رعيته ، فالإله الحق يُطْعِم ولا يُطْعَم ، ويجير ولا يُجَار عليه ، الإله الحق يُعطى ولا يأخذ ، ولما اجتمع السحرة وهم أبطال هذه المباراة ، ويعلمون مدى حاجة فرعون إليهم فى هذا الموقف ؛ لذلك بادروا بالاتفاق معه والاشتراط عليه : إنْ كنت تُسخِّر الناس فى خدمتك دون أجر ، فهذه المسألة تختلف ، ولن تمر هكذا دون أجر .

وهذا دليل على معرفتهم بفرعون ، وأنه رجل (أكَلْتى) ، لذلك اشترطوا عليه أجراً إنْ كانوا هم الغالبين ، ولا ندرى فربما جاء آخر يهدد هذه الألوهية ، فنحن ندخركم لمثل هذا الموقف .

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

هنا يتنازل فرعون عن تعاليه وكبريائه ويذعن لشروط سَحرته ، بل ويزيدهم فوق ما طلبوا ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشعراء] فسوف تكونون من خاصتنا ، نستعين بكم فى مثل هذه الأمور ، ولا نستغنى عنكم ؛ لأنكم الذين حافظتم على باطل ألوهيتنا .

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

هنا كلام محذوف ، نعرفه من سياق القصة ؛ لأن الآية السابقة كان الكلام ما يزال بين فرعون والسحرة ، والقرآن يحذف بعض الأحداث اعتماداً على فطْنة السامع أو القارىء ، كما قلنا فى قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، حيث قال له : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل]

ثم قال بعدها : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ[1] (٢٩) ﴾ [النمل] وحذف ما بين هذين الحدثين مما نعلمه نحن من السياق .

وقوله : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) ﴾ [الشعراء] هذه هى الغاية التى انتهى إليها بعد المحاورة مع السحرة .

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) ﴾

فكانت العصىّ والحبال هى آلات سحرهم ﴿ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) ﴾ [الشعراء] بعزة فرعون : هذا قسمهم ، وما أخيبه من قسم ؛ لأن فرعون لا يُغلَب ولا يُقهر فى نظرهم ، وسبق أن أوضحنا أن العزة تعنى عدم القهر وعدم الغلبة ، لكن عزة فرعون عزة كاذبة وأنفة وكبرياء بلا رصيد من حق ، وعزة بالإثم كالتى قال الله عنها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ .. (٢٠٦) ﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) ﴾ [ص] أى : عزة بإثم ، وعزة بباطل .

ومنه أيضاً قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون] فصدّق القرآن على قولهم

(١) تعنى بكرمه : ما رأته من عجيب أمره كون طائر جاء به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدباً وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك . [تفسير ابن كثير ٣٦١/٣] . وقال القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٤/٧) : « وصفته بذلك لما تضمن من لين القول والموعظة فى الدعاء إلى عبادة الله عز وجل وحسن الاستعطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ولا ما يغير النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق على عادة الرسل فى الدعاء إلى الله » .

بأن الأعزّ سيُخرج الأذلّ ، لكن ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. ⟨٨⟩ ﴾ [المنافقون]

وما دام الأمر كذلك فأنتم الأذلّة ، وأنتم الخارجون ، وقد كان .

ويقال : إن أدوات سحرهم وهى العصىّ والحبال كانت مُجوفة وقد ملئوها بالزئبق ، فلما ألقوها فى ضوء الشمس وحرارتها أخذتْ تتلاعب ، كأنها تتحرك ، وهذا من حيل السَّحَرة وألاعيبهم التى تُخيِّل للأعين وهى غير حقيقية ، فحقيقة الشيء ثابتة ، أمّا المسحور فيخيل إليه أنها تتحرك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ⟨٤٥⟩ ﴾

ولم يَأْت إلقاء موسى عليه السلام لعصاه مباشرة بعد أن ألقى السحرة ، إنما هنا أحداث ذُكرتْ فى آيات أخرى ، وفى لقطات أخرى للقصة ، يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ⟨٦٦⟩ ﴾ [طه]

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ⟨٦٧⟩ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ⟨٦٨⟩ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا .. ⟨٦٩⟩ ﴾ [طه]

هكذا كانت الصورة ، فلما خاف موسى ثبَّته ربه ، وأيّده بالحق وبالحجة ، وتابعه فيما يفعل لحظةً بلحظة ؛ ليوجهه وليُعدِّل سلوكه ، ويشدّ على قلبه ، وما كان الحق - تبارك وتعالى - ليرسله ثم يتخلى عنه ، وقد قال له ربه قبل ذلك : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ⟨٣٩⟩ ﴾ [طه] وقال : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ⟨٤٦⟩ ﴾ [طه] فالحق سبحانه يعطى نبيه موسى الأوامر ، ويعطيه الحجة لتنفيذها ، ثم يتابعه بعنايته ورعايته .

ومن ذلك قوله تعالى لنبيه نوح : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

فحينما تجمع هذه اللقطات تجدها تستوعب الحدث ، ويُكمِّل بعضها بعضاً ، وهذا يظنه البعض تكراراً ، وليس هو كذلك .

إذن : جاء إلقاء موسى لعصاه بعد توجيه جديد من الله أثناء المعركة : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ .. (٦٩) ﴾ [طه] وهنا : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) ﴾ [الشعراء] ومعنى ﴿ تَلْقَفُ .. (٤٥) ﴾ [الشعراء] تبتلع وتلتهم فى سرعة وقوة ، أما السرعة واختصار الزمن والقوة ، فتدل على الأخذ بشدة وعُنْف ، وفى هذا دليل على أنه خاض المعركة بقوة ، فلم تضعف قوته لما رأى من ألاعيب السَّحَرة .

ومعنى ﴿ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) ﴾ [الشعراء] من الإفك يعنى : قلْب الحقائق ؛ لذلك سَمَّوْا الكذب إفْكاً ؛ لأنه يقلب الحقيقة ويُغير الواقع .

ومنها ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم] وهى القرى[1] الظالمة التى أهلكها الله ، فجعل عاليها سافلها .

وسبق أن أوضحنا أن الكذب وقَلْب الحقائق يأتى من أنك حين تتكلم ، فللكلام نِسَبٌ ثلاث : نسبة فى الذِّهْن ، ونسبة على اللسان ، ونسبة فى الواقع . فإنْ طابقتْ النسبةُ الكلامية الواقع ، فأنت صادق ، وإنْ خالفتْه فأنت كاذب .

---

(١) يعنى : مدائن قوم لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود . قال قتادة : كان فى مدائن قوم لوط أربعة آلاف ألف إنسان (يعنى ٤ ملايين) فانضرم عليهم الوادى شيئاً من نار ونفط وقطران كفم الأتون . [تفسير ابن كثير ٤/٢٥٩] .

وسَمَّى ما يفعله السحرة إفكاً ؛ لأنهم يُغيِّرون الحقيقة ، ويُخيِّلون للناس غيرها .

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

لم يقُل الحق سبحانه : فسجد السحرة ، إنما ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشعراء] والإلقاء يدل على سرعة الاستجابة ، وأن السجود تَمَّ منهم دون تفكير ؛ لأنه أمر فوق إرادتهم ، وكأن جلال الموقف وهيبته وروعة ما رَأَوْا ألقاهم على الأرض ساجدين لله ، صاحب هذه الآية الباهرة ؛ لذلك لم يقولوا عندها آمنَّا بربٍّ موسى وهارون ، إنما قالوا :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وحين نتأمل ردَّ فعْل السحرة هنا نجد أنهم خرُّوا لله ساجدين أولاً ، ثم أعلنوا إيمانهم ثانياً ، ومعلوم أن الإيمان يسبق العمل ، وأن السجود لا يتأتى إلا بعد إيمان ، فكيف ذلك ؟

قالوا : هناك فَرْق بين وقوع الإيمان ، وبين أنْ تخبر أنت عن الإيمان ، فالمتأخر منهم ليس الإيمان بل الإخبار به ؛ لأنهم ما سجدوا إلا عن إيمان واثق ينجلى معه كل شكٍّ ، إيمان خطف ألبابهم وألقاهم على الأرض ساجدين لله ، حتى لم يمهلهم إلى أنْ يعلنوا عنه ، لقد أعادهم إلى الفطرة الإيمانية فى النفس البشرية ، والمسائل الفطرية لا علاجَ للفكر فيها .

وكأن سائلاً سألهم : لِمَ تسجدون ؟ قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (٤٨)﴾ [الشعراء]

وقالوا : ربِّ موسى وهارون بعد رب العالمين ، ليقطعوا الطريق على فرعون وأتباعه أن يقول مثلاً : أنا رب العالمين ، فأزالوا هذا اللبْس بقولهم ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (٤٨)﴾ [الشعراء]

ومثال ذلك قول بلقيس عندما رأت عرشها عند سليمان - عليه السلام - لم تقل : أسلمت لسليمان ، إنما قالت : ﴿أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] فأنا وأنت مسلمان لإله واحد هو الله رب العالمين ، وهكذا يكون إسلام الملوك ، وحتى لا يظن أحد أنها إنما خضعتْ لسليمان ؛ لذلك احتاطتْ في لفظها لتزيل هذا الشك .

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩)﴾

إذن : فهو لا يشك في أن ما رآه السحرة موجب للإيمان ، ولا يُشكِّك في ذلك ، لكن المسألة كلها ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. (٤٩)﴾ [الشعراء] فما يزال حريصاً على ألوهيته وجبروته ، حتى بعد أن كُشف أمره وظهر كذبه ، وآمن الملأ بالإله الحق .

ثم أراد أنْ يبرر موقفه بين دهماء العامة حتى لا يقول أحد : إنه هزم وضاعت هيبته ، فقال : ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٤٩)﴾ [الشعراء] في حين أن القوم يعلمون أن موسى عليه السلام لم يجلس طيلة عمره إلى ساحر ، لكن فرعون يأخذها ذريعة ، لينقذ ما يمكن إنقاذه من مركزه الذي تهدَّم ، وألوهيته التي ضاعت .

ثم يُهدِّدهم بأسلوب ينمّ عن اضطرابه ، وأنه فقد توازنه ، واختلّ حتى فى تعبيره ، حيث يقول ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشعراء] وسوف تدل على المستقبل مع أنه لم يُؤخّر تهديده لهم بدليل أنه قال بعدها : ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشعراء] ﴿ مِّنْ خِلافٍ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : اليد اليمنى مع الرِّجْل اليُسْرى ، أو اليد اليسرى مع الرِّجْل اليمنى .

وقوله : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشعراء] أوضحه فى آية أخرى : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [طه]

فماذا كان جواب المؤمنين برب العالمين ؟

﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

أى : لا ضررَ علينا إنْ قتلتنا ؛ لأن مصير الجميع إلى الموت ، لكن إنْ كانت نهايتنا على يديك فسوف نسعد نحن بلقاء ربنا ، وتَشْقى أنت بجزاء ربك . كالطاغية الذى قال لعدوه : لأقتلنك فضحك ، فقال له : أتسخر منى وتضحك ؟ قال : وكيف لا أضحك من أمر تفعله بى يُسعدنى الله به ، وتشقى به أنت ؟

إذن : لا ضررَ علينا إنْ قُتلْنا ؛ لأننا سنرجع إلى الله ربنا ، وسنخرج من ألوهية باطلة إلى لقاء الألوهية الحقة ، فكأنك فعلتَ فينا جميلاً ، وأسديتَ لنا معروفاً إذْ أسرعتَ بنا إلى هذا اللقاء ، وما تظنه فى حقنا شَرٌّ هو عين الخير ، لذلك فَهِم الشاعر هذا المعنى ، فقال عنه :

وَلَسْتُ أُبَالِى حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً   عَلى أىِّ جَنْبٍ كانَ فى الله مَصْرعى

يعنى : ما دُمْتُ قد مُتُّ فى سبيل الإسلام ، فلا يُهم بعد ذلك ، ولا أبالى أىّ موتة هى .

والمؤمنون هنا حريصون على أمرين : الأول : نَفْى الضرر ؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، والثانى : التأكيد على النفع الذى سينالونه من هذا القتل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

لأنك أكرهتنا على السحر ، وحملْتنا على الكذب ، ومكثنا عمراً نعتقد أنك إله ، فلعلَّ مبادرتنا إلى الإيمان وكوْننا أولَ المؤمنين يشفع لنا عند ربنا ، فيغفر لنا خطايانا ، وفى موضع آخر : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه]

فذكر هناك مسألة الإكراه ، وذكر هنا العلة : ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء]

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ[1] بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قلنا : الوحى لغةً : إعلام بخفاء ، وشرعاً : إعلام من الله لرسول من رسله بمنهج خير لخلْقه .

---

(١) سرى يسرى : سار ليلاً . وأسرى به : جعله يسرى أو حمله على السير ليلاً . [القاموس القويم ٣١٢/١] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣٣٥/٣) : « كان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر ، وذكر مجاهد رحمه الله أنه كُسف القمر تلك الليلة فالله أعلم » .

ومن الوحى المطلق قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا .. (٦٨) ﴾ [النحل]

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. (٧) ﴾ [القصص]

فالوحى العام إذن لا نسأل عن الموحِى ، أو الموحَى إليه ، أو موضوع الوحى ، فقد يكون الوحى من الشيطان ، والموحَى إليه قد يكون الأرض أو الملائكة أو الحيوان ، على خلاف الوحى الشرعى ، فهو محدد ومعلوم .

لقد قام فرعون بحملة دعاية لهذه المعركة مع موسى ـ عليه السلام ـ وحشد الناس لمشاهدة هذه المباراة ، وهذا دليل على أنه قدَّر أنه سيغلب ، لكن خيَّب الله ظنه ، وكانت الجولة لمصلحة موسى عليه السلام ، فآمن السحرة بالله تعالى رب موسى وهارون ، فأخذ يهددهم ويتوعدهم ، وهو يعلم أنَّ ما رأوْه من الآيات الباهرات يستوجب الإيمان .

ومع ذلك لما غُلب فرعون وضاعتْ هيبته وجباريته وقاهريته سكت جمهور الناس ، فلم يذادوا بسقوطه ، واكتفوا بسماع أخبار موسى ، وظل هذا الوضع لمدة طويلة من الزمن حدث فيها الآيات التسع التى أنزلها الله ببنى إسرائيل .

ومن غباء فرعون أن ينصرف عن موسى بعد أن أصبح له أتباع وأنصار ، ولم يحاول التخلص منه حتى لا يزداد أتباعه وتقوى

شوكته ، فكأن مسألة الآيات التسع التى أرسلها الله عليهم قد هدّت كيانه وشغلته عن التفكير فى أمر موسى عليه السلام .

وهكذا استشرى أمر موسى وأصبحت له أغلبية وشعبية ، حتى إن الأقباط[1] أتباع فرعون كانوا يعطفون على أمر موسى وقومه ؛ لذلك استعاروا من القبط حُلىَّ النساء قبل الخروج مع موسى ، ومن هذه الحلى صنع السامرى العجل الذى عبدوه فيما بعد .

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشعراء] وقبل ذلك نبّهه ربه للخروج بعد أن قتل الرجل : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القصص]

أما الآن ، فالمؤامرة عليه وعلى مَنْ معه من المؤمنين .

ومعنى ﴿ أَسْرِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشعراء] الإسراء : المشى ليلاً ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : سيتبعكم جنود فرعون ويسيرون خلفكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ[2] قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾
وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

---

(١) القبط : جيل بمصر . وقيل : هم أهل مصر وبُنْكها (أصلها) ورجل قبطى . والقُبْطيَّة : ثياب كتان بيض رقاق تُعمل بمصر وهى منسوبة إلى القبط . [لسان العرب - مادة : قبط] فالقبط هم أهل مصر من قبل موسى عليه السلام ومن قبل أن تدخل مصر فى المسيحية . فالقبط جنس ليس مرتبطاً بالديانة .

(٢) الشرذمة : الجماعة القليلة من الناس [لسان العرب - مادة : شرذم] . قال القرطبى فى تفسيره (٤٩٧٩/٧) : « روى أن بنى إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً والله أعلم بصحته » .

الفاء هنا للتعقيب ، فوَحْى الله لموسى أن يَسْرى ببنى إسرئيل تَمَّ قبل أن يبعثَ فرعون فى المدائن حاشرين ، وكأن الله تعالى يحتاط لنبيه موسى ليخرج قبل أن يهيج فرعونُ الناسَ ، ويجمعهم ضد موسى ويُجرى لهم ما نسميه نحن الآن (غسيل مخ) ، أو يعلن على موسى وقومه حرب الأعصاب التى تؤثر على خروجهم .

و ﴿ **حَاشِرِينَ** ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشعراء] من الحشر أى : الجمع ، لكن جمع هذه المرة للجنود لا للسحرة ، لأنهم هُزموا فى مُباراة السحرة ، فأرادوا أنْ يستخدموا سلاحاً آخر هو سلاح الجبروت والتسلُّط والحرب العسكرية ، فإنْ فشلت الأولى فلعلّ الأخرى تفلح ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ أخبر نبيه موسى بما يُدبَّر له وأمره بالخروج ببنى إسرائيل .

وقَوْل فرعون عن أتباع موسى : ﴿ **إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ** ﴿٥٤﴾ ﴾ [الشعراء] يريد أن يُهوِّن من شأنهم ويُغرى قومه بهم ، ويُشجِّعهم على مواجهتهم ، لكن مع ذلك يُحذِّرهم من خطرهم ، فيقول ﴿ **وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ** ﴿٥٥﴾ ﴾ [الشعراء] فأعدُّوا لهم العدة ، ولا تستهينوا بأمرهم .

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يعنى : لا بُدَّ أن نأخذ حذرنا ونحتاط للأمر.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ[1] وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

---

(١) عن عبد الله بن عمرو قال : كانت الجنات بحافتى النيل فى الشقتين جميعاً من أسوان إلى رشيد ، وبين الجنات زروع . [تفسير القرطبى ٤٩٨/٧] .

أى : لم ينفعه احتياطه ، ولم يُجْد حذره ، فلا يمنع حَذَر من قَدَر ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ .. (٥٧)﴾ [الشعراء] أى : بساتين وحدائق ﴿وَعُيُونٍ (٥٧)﴾ [الشعراء] أى : عيون تجرى بالماء ﴿وَكُنُوزٍ .. (٥٨)﴾ [الشعراء] كانت عندهم ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨)﴾ [الشعراء] يعنى : عيشة مُتْرفة فى سَعَة ورَغَد من الحياة ، وخَدَم وحَشَم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾

﴿كَذَٰلِكَ .. (٥٩)﴾ [الشعراء] أى : الأمر كما أقول لكم وكما وصفتُ ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الشعراء] أى : أورثنا هذا النعيم من بعدهم لبنى إسرائيل ، وهنا قد يسأل سائل : كيف وقد ترك بنو إسرائيل مصر وخرجوا منها ، ولم يأخذوا شيئاً من هذا النعيم ؟

قالوا : المعنى أورثهم الله أرضاً مثلها ، قد وعدهم بها فى الشام[(١)] .

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠)﴾

أى : عند الشروق ، وعادةً ما تكون الغارة على الجيش عند الصباح ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧)﴾ [الصافات]

وعادةً ما يقوم الإنسان من النوم كسولاً غير نشيط ، فكيف بمَنْ هذه حاله إن التقى بعدوه ؟

---

(١) قال القرطبى فى تفسير هذه الآية (٧/ ٤٩٨٤) : « يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بنى إسرائيل . قال الحسن وغيره : رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه . وقيل : أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حلى آل فرعون بأمر الله تعالى » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

معنى ﴿ تَرَاءَى الْجَمْعَانِ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] أى : صار كل منهما يرى الآخر ، وحدثتْ بينهما المواجهة ، وعندها ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] فالحال أن البحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم ، فلا مناصَ ولا مهرب ، لكن موسى ـ عليه السلام ـ وقد سبق أن تعلم كلمة (كلا) من ربه تعالى ، حينما قال : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء] فردّ عليه ربه : ﴿ كَلَّا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] عندها تعلَّمها موسى ، وعرف كيف ومتى يقولها قَوْلَةَ الواثق بها .

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾

لكن كيف يقول موسى عليه السلام هذه الكلمة (كلا) بملء فيه ، والأمر بقانون الماديات أنه عُرْضة لأنْ يُدْرَك قبل أن يكملها ؟

والإجابة فى بقية الآية : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] فلم يقُلْ موسى : كَلاَّ اعتماداً على قوته واحتياطه للأمر ، إنما قالها اعتماداً على ربه الذى يكلؤه بعينه ، ويحرسه بعنايته .

فالواقع أننى لا أعرف ماذا أفعل ، ولا كيف أتصرف ، لكن الشىء الذى أثق منه ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] لذلك يأتى الفرج والخلاص من هذا المأزق مباشرة :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾

ذلك لأن البحر هو عائقهم من أمامهم ، والبحر مياه لها قانونها الخاص من الاستطراق والسيولة ، فلما ضرب موسى بعصاه البحر انفلق وانحصر الماء على الجانبين ، كل فِرْقٍ - أى : كل جانب - كالطوْد يعنى الجبل العظيم .

لكن بعد أن صار الماء إلى ضدِّه وتجمّد كالجبل ، وصنع بين الجبلين طريقاً ، أليس فى قاع البحر بعد انحسار الماء طين ورواسب وأوحال وطمى يغوص فيها الإنسان ؟

إننا نشاهد الإنسان لا يكاد يستطيع أن ينقل قدماً إذا سار فى وحل إلى ركبتيه مثلاً ، فما بالك بوحْل البحر ؟

لذلك قال له ربه : ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ (٧٧) ﴾ [طه]

فالذى جعلَ لك الماء جبلاً ، سيجعل لك الطريق يابساً .

والحق - تبارك وتعالى - لم يُبيِّن لنا فى انفلاق البحر ، إلى كَمْ فلقة انفلق ، لكن العلماء يقولون : إنه انفلق إلى اثنتى عشرة فلقة بعدد الأسباط(١) ، بحيث يمر كل سِبْط من طريق .

وفى لقطة أخرى من القصة أراد موسى - عليه السلام - أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى طبيعته ، فيسدُّ الطريق فى وجه فرعون وجنوده على حدِّ تفكيره كبشر ، لكن الحق - تبارك وتعالى - نهاه عن ذلك : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا(٢) إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

---

(١) قاله ابن عباس فيما نقله عنه ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٣٦) ، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٠٣ ، ٣٠٤) ضمن أثر طويل عزاه لابن عبد الحكم فى « فتوح مصر » من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس .

(٢) أى : اترك البحر ساكنة أمواجه ليغتروا فينزلوا فيه ، أو كن ساكن النفس هادئاً مطمئناً إلى النجاة . [القاموس القويم ١/٢٧٩ بتصرف]

اتركه على حاله ليُغرى الطريق اليابس فرعون وجنوده ، لذلك قال سبحانه :

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) ﴾

أى : قرّبناهم من منتصف البحر ، ثم أطبقه الله عليهم حين أمر الماء أن يعود إلى سيولته وقانون استطراقه ، وهكذا يُنجِّى الله ويُهلك بالشىء الواحد و ﴿ الْآخَرِينَ (٦٤) ﴾ [الشعراء] يعنى : قوم فرعون ، و ﴿ ثَمَّ .. (٦٤) ﴾ [الشعراء] أى : هناك وسط البحر .

وللعصا مع موسى - عليه السلام - تاريخ طويل منذ أن سأله ربه ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧) ﴾ [طه] فأخبر بما يعرفه عنها ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. (١٨) ﴾ [طه]

وقوله ﴿ أَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. (١٨) ﴾ [طه] لا تعنى كما يظن البعض أنها مجرد الإشارة بها إلى الغنم أو ضربها ، فأهشُّ تعنى أضرب بها أوراقَ الشجر لتتساقط ، فتأكلها الأغنام الصغار التى لا تطول أوراقَ الشجر ، أو الكبار التى أكلتْ ما طالته أعناقها وتحتاج المزيد .

ولما وجد موسى نفسه قد أطال فى هذا المقام قال ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه] كأنْ أدافع بها عن نفسى ليلاً ، إنْ تعرَّض لى كلب أو ذئب مثلاً ، أو أغرسها فى الأرض وأُلقى عليها بثوبى لأستظلَّ به وقت القيلولة ، أو أجعلها على كتفى وأُعلِّق عليها متاعى حين أسير .. إلخ .

هذه مهمة العصا كما يراها موسى - عليه السلام - لكن للعصا مهمة أخرى لا يعلمها ، فهى حُجَّته وآية من الآيات التى أعطاه الله ،

فبها انتصـر فى معركة الحجة مع السَّحَرة ، وبها انتـصر فى معركة السلاح حين ضرب بها البحر فانفلق .

ومن العجيب فى أمر العصا أن يضرب بها البحر ، فيصير جبلاً ، ويضرب بها الحجر فينفـجر بالماء ، وهذه آيات باهرات لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

لذلك جعلوا عصا موسى حجةً ودليلاً وعلَماً على الانتصار فى كل شىء ، فلمـا كان الخـصيب[1] والياً على مصـر ، وتمرد عليـه بعض قُطَّاع الطرق ، وكانت لديه القوة التى قهرهم بها ، لذلك قال :

فَإِنْ يَكُ بَاقٍ إفْكُ فِرْعَـوْنَ فيـكُمْ　　فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بكَفِّ خَصِيبِ

وفى هذا المعنى يقول شاعر آخر :

إذَا جَاءَ مُوسَى وَأَلْقَى العَصَا　　فَقَدْ بَطُلَ السِّحْرُ والسَّاحِرُ

إذن : صارتْ عصا موسى عليه السـلام مثلاً وعلَماً للغلبة فى أىِّ مجال من مجالات الحياة .

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ﴾

فقـد حُسِـمتْ هذه المعركـة لصالح مـوسى ومَنْ معـه دون إراقة دماء ، ودون خسـارة جندى واحد ، فى حين أن المعـارك على فرض الانتـصار فـيهـا لا بُدَّ أن تكون لهـا نسبـة خسـائر فى الأرواح وفى العَتَاد ، أما هذه فلا .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝٦٦ ﴾

---

(١) جاء فى لسان العرب ـ مادة : خصب : « الخصيب لقب رجل من العرب» .

أى : بنفس السبب الذى أنجى الله به موسى وقومه أهلك فرعون وقومه ؛ لأنه وحده سبحانه القادر على أن يُنجِى ، وأنْ يُهلِك بالشىء الواحد .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قوله سبحانه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الشعراء] أى : فيما حدث ﴿ لَآيَةً .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الشعراء] وهى الأمر العجيب الذى يخرج عن المألوف وعن العادة ، فيثير إعجاب الناس، ويستوجب الالتفات إليه والنظر فيه، والآية تُقنِع العقل بأن الله هو مُجْرِيها على يَدَىْ موسى ، وتدل على صدْق رسالته وبلاغه عن الله ، وإلا فهى مسألة فوق طاقة البشر .

ومع ذلك ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الشعراء] أى : أن المحصلة النهائية للذين آمنوا كانوا هم القلة(١) مع هذه الآيات ، حتى الذين آمنوا مع موسى عليه السلام واتبعوه وأنجاهم الله من آل فرعون ومن الغرق ، سرعان ما تراجعوا وانتكسوا ، كما يحكى القرآن عنهم :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف]

سبحان الله ، لقد كفروا بالله ، وما تزال أقدامهم مُبتلَّة من عبور البحر ، وما زالوا فى نَشوة النصر وفرحة الغلبة !!

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

أى : بعد ما مَرَّ من حيثيات فإن الله تعالى هو العزيز ، أى : الذى

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٩٨٦/٧) : « لأنه لم يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل ، وابنته آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت ذا موسى العجوز التى دلَّتْ على قبر يوسف الصِّديق عليه السلام » .

لا يُغلَب ولا يُقهَر ، إنما هو الغالب وهو القاهر ، فهو سبحانه يغلِب ولا يُغلب ، ويُطعِم ولا يُطعَم ، ويُجير ولا يُجار عليه . ومع عزته سبحانه وقوته بحيث يغلب ولا يُغلب هو أيضاً ﴿ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾ [الشعراء] لأنه رب الخَلْق أجمعين ، يرحمهم إنْ تابوا ، ويقبلُهم إنْ رجعوا إلى ساحته ، كما جاء في الحديث الشريف :

« لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »[1] .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾

جاءت هذه الآية بعد الانتهاء فى إيجاز مُبسَّط لقصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وخُتمت بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾ [الشعراء]

ثم تكلم الحق سبحانه عن نبيه إبراهيم عليه السلام ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الشعراء] مما يدل على أن المسألة فى القرآن ليست سَرْداً للتاريخ ، فإبراهيم كان قبل موسى ، ولو أردنا التاريخ لجاءت قصة إبراهيم أولاً ، إنما الهدف من القصص فى القرآن التقاط مواضع العِبْرة والعظَة واتخاذ الأُسْوة من تاريخ الرسل ، ليُثبِّت الله بها فؤاد رسوله ﷺ حينما يواجه الأحداث الشاقة والعصيبة .

والمتأمل فى رسالة موسى ورسالة إبراهيم عليهما السلام

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

يجد أن موسى جاء ليعالج مسألةً هى قمة العقيدة ، ويواجه مَنِ ادّعى الألوهية وقال : إنى إله من دون الله ، أما إبراهيم فقد عالج مسألة الشرك مع الله وعبادة الأصنام ، فعندهم طَرَف من إيمان ، بدليل أنهم إذا ضيّقنا عليهم الخناق قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ③﴾ [الزمر]

لذلك كانت قصة موسى أوْلَى بالتقديم هنا .

ومعنى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ .. ⑥⑨﴾ [الشعراء] أى : اقرأ ، أو وضّح ، أو عبِّر ، ونقول للقراءة (تلاوة) لأنه لا يُتلَى إلا المكتوب المعلوم المفهوم ﴿عَلَيْهِمْ .. ⑥⑨﴾ [الشعراء] على أمة الدعوة كلها ، أمْ على المكذبين خاصة ؟

قالوا : على المكذِّبين خاصة ؛ لأن المصدِّقين برسول الله لا يحتاجون هذه التلاوة ، وإنْ تُليَتْ عليهم فإنما التلاوة للتذكرة أو لعلم التاريخ . إذن : المراد هنا المكذِّبون المنكرون ليعلموا أن نهاية كل رسل الله فى دعوتهم النصر والغلبة ، وأن نهاية المكذبين المخالفين الهزيمة والاندحار .

فكأن القرآن يقول لهم : لا تغتروا بقوتكم ، ولا بجاهكم ، ولا تنخدعوا بسيادتكم على العرب ، ومعلوم أن مكانة قريش بين العرب إنما أخذوها من خدمة بيت الله الحرام ، وما أمِنُوا فى طرق تجارتهم إلاَّ بقداسة بيت الله وحُرْمته .

ولولا البيت ما كان لقريش كل هذه المكانة ، بدليل قوله تعالى : ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ① إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ②﴾ [قريش]

ولو انهدم البيت فى قصة الفيل ما كان لقريش سيادة ولا سيطرة